عذابات وطنية

أحمد فتحي رزق

كانت محصلة مكالمته الأخيرة على هاتفة المعطل دائمًا، الذي يعمل بصعوبة في بعض الأحيان ومع ضجيج ميكروفون الزاوية المجاورة والشيخ المتطرف أنه على موعد مع وظيفة جديدة في عالم البزنس والتجارة حين جاء العرض من شركة متعددة الجنسيات بعد أن حصلوا على رقمه من خلال مواقعه على شبكات التواصل الاجتماعي، وكعادته فتح بعض رسائله على الإيميل فوجد عرضًا آخرا يرغب صاحبه في التواصل معه من أجل شراكة مهمة وفتح أفاقٍ أكبر أمامه حتى لامس بذلك العرض عنان السماء .

تردد كثيرًا في قبوله لكنه وافق في النهاية مضحياً بالشركة الأولى التي كان سيشغل بها منصبًا مرموقًا كاستشاريّ بمرتب خيالي، وتم تحديد موعدٍ مع شخص يوصف بالملك حسب وضعه الوظيفي كرئيس للشركة، ذاك مَن يحمل أوراقًا عدة في حقيبته المهترئة التي لا تدل على تجارة أو صناعة أو غيره.

ولأنه كان لابد من تقييم الأمر وجهًا لوجه والتحقق من كافة المعلومات التي زوده بها قبل اللقاء فقد حسم أمره وذهب ليقابله.

على الرغم من كافة التوجيهات الدينية التي أصدرها له قبل أن يراه، لكنه كان بعيداً عن تعاليم الإسلام سوى في حضور الصلوات في المكان المخصص والتأكيد على أهمية دقة العمل وكذلك المعلومات، بعد أن عرض أسماء شركات كثيرة وأنشطة مختلفة ولفظ عدداً من أسماء كبار رجال

أعمال الدول العربية والأجنبية وصفقات تجارية تمت بينه وبين الحكومة المصرية وقت أزمة الدقي.

وألبان الأطفال وصارحه بأن شركته قد حققت أرباحًا هائلة من وراءها حتى أنها تعدَّت المليارات، إلا أنه قد بدأ يساوره القلق حيث لا مقرًا مجهزًا ولا سائقًا، ووفقًا لمنصبه فتلك اللقاءات لا تصلح أن تكون بالمقاهي والنوادي لابد من مكان مخصص للبحث والعمل الجاد .

بعد أن حنث وعده مع صاحبنا الأول بإمكانية الشراكة بمساهماته العلمية والبحثية وعمله كاستشاري وأمعن في العرض الآخر وحصته النقدية منه، توجه على الفور إلى منحاه الآخر وطريقة عمله التي قد تكون غريبة بعض الشيء خصوصًا في عالم الأعمال مثل كم معلومات والتفاصيل الرهيبة عن أمور داخل مصر وخارجها قد ترقى لدرجة الخصوصية والحساسية للأمن القومي، بينما قرر الآخر أن يجربه في بعض الأمور لذا عهد إليه ببعض التعاقدات والأعمال داخل مصر وخارجها كما أن هذا الملك لديه أكثر من جنسية عربية وأجنبية وأوراق صفقات تبعث على المصداقية قليلاً، ولم يُعِر بالاً لكل ما مرَّ، فقد يكون الرجل مختلاً أو يمر بأزمة نفسية أوصلته لهذا السلوك .

أفرد له مساحة من الشفافية، ولم يستسلم لهواجسه وقلقه بعد أن سلمه أوراق العملية الأولى وهي قضية متشابكة الخصوم والأطراف تمرُّ عبر أكثر من دولة، بعد أن درسها جيدًا طلب شروطًا خيالية ومجحفة كما أصرّ أن يكون الدفع مقدمًا قبل أن يبدأ العمل، رفض صاحب القضية ذلك بعد مهاترات ومداولات كثيرة، ثم استدعى الرجل صاحبنا ذات صباح وأمره أن يتخلى عن كافة أعماله التي يمارسها كالزراعة والتجارة والتصنيع والتمثيل التجاري على أن يبدأ بفكرة جديدة وهى تسفير الشباب للخارج عبر وسائل

قانونية وغير قانونية على شرط الدفع مقدمًا، لكنه شرح له أزمة البطالة جيدًا وأقنعه أن الشاب قد لا يمتلك مالًا ليدفع في الأساس إلا بعد تنفيذ المطلوب فقد يقترض أهله سداد نفقات سفره يحاول من جهته أن يسايره ومن الجهة الأخرى يفتش خلفه عبر مصادره المختلفة وعلاقاته المتعددة، لم يجد أي معلومة تذكر أمام العديد من الأسئلة التي تدور برأسه، شخص له عدة جوازات سفر بأسماء مختلفة من يكون إذاً؟ولا يقيم بمنزل ولا يتحرك بسيارة ليس له مقر إداري لشركته إلا على الورق فقط كما أن تعاملاته تتم فقط مع جهات الاتحاد الأوروبي ومؤسسات التمويل الأخرى، كرر نفس السؤال، من يكون الرجل؟

حادثته نفسه لدقائق في أن تكون تلك فرصته للوصول للثراء فكم من الشباب بعد الثورة تغيرت حياته ومعيشته بعد العمل مع الجهات الأجنبية أو الأشخاص ذوي الطبيعة الجاسوسية والإرهابية وهو يعلم جيدًا أنه من الممكن أن يخرج ناصعًا اليدين دون أدنى مسؤولية خصوصًا مع تمتعه بذكاء حاد شهد به الجميع، ولم لا، هناك من عُين مستشارًا لأحد الوزراء وكانت بدايته ميدان التحرير وغيره هاجر للولايات وآخرَ امتلك السيارات والشقق الفاخرة ولم يدان في أي قضية، هكذا بدأ يُقنع نفسه بالرضا والقبول المبدئي، أيًا كان الأمر فقد حُرِم الكثير على مدار عمره، بدءًا من تعليمه ومرورًا بوفاة والده الذي توفي حزنًا على حجز مصلحة الضرائب على محله الصغير وأيضًا رحيل والدته التي بذلت كل غالٍ ونفيس لأجله هو وإخوته، لم ينتهِ الأمر عند ذلك بل شمل حدث حرمانه من التعيين في الجامعة رغم تقدير الامتياز، كما حُرِم أيضًا رئاسة إحدى الهيئات الكبرى، وبالطبع لم تغفل ذاكرته حدث إجباره على الاستقالة من وظيفته عندما كشف فساد مديره وبعضاً من كبار وكلاء الوزارة، ولم ينسَ حبيبته ابتسام التي كان ينوى

خطبتها بعد التخرج، استفاق من كل تلك الهموم التي أثقلت كاهله على فكرة توطدت في ذهنه «أن تلك البلاد لا تستحق أن يضحى من أجلها، كما أن عُمره الذي قارب الأربعين دون أي إنجاز يُذكر يستحقُّ الأفضل» أنهى جو الصراع ذاك الذي أنهكه كثيرًا ونال منه وراح يغطُّ في سُبات عميق.

وجد نفسه يقف مكبل اليدين مشلول الحركة على شفا حفرة سحيقة عميقة، يصرخ عاليًا لعلّ أحد المارة ينقذه دون جدوى فالكل ينظر إليه باحتقار ويشيح بوجهه بعيدًا عنه، وكأن الجميع يستمتعون بمعاناته، وبعد طول عناء وصراع مع ذاته المنهكة وجد مخرجًا يستطيع أن يستعيد عافيته وتوازنه من خلاله.

أيقظه صوت آذان الفجر الذي يُزلزل الآفاق بالاستغفار والحمد وآيات الذكر الحكيم، خشع قلبه لقوله:

«الصلاة خير من النوم»

فنهض وتوضأ وصلَّى فرضه، اطمأنّ قلبه ولان بعد صلاته فغشيته الرحمة وغزاه الإيمان لذا أعاد ترتيب أفكاره من أجل اجتماع اليوم.

ماذا أنت فاعل بنفسك أيها الشقي؟

سؤال وجهه لنفسه للمرة الأخيرة وتذكر بيت الشاعر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة　　　وأهلي وإن ضنوا علي كرام

فاستغفر ربه راكعًا ثم أناب، ولم يذهب لموعده، بل قادته قدماه إلى القصر الجمهوري بالقبة ثم طلب مقابلة أحد الضُبّاط المسؤولين في ذاك المبنى العتيق الذي يبعث على الخوف والرهبة من مجرد دخوله، أجلسوه في غرفة منعزلة مضى عليه فيها بعضًا من الوقت إلى أن تمّ الاستعلام عنه وعن هويته واتجاهاته، ثمّ انتقل إلى مكتب أحد المسؤولين وأجرى لقاءً سريًا للغاية، باح

فيه بالكثير خصوصًا ما دار بينه وبين الملك، كان يتحدّث بينما الأخر يستمع له بحرص شديد، لئلّا يُفوِّت حدثًا.....

وبعد أن أخرج مكنونه وانتهى من حكاياته أبلغه الضابط المسؤول بأنه سيغادر الآن وعليه أن يتعامل مع الملك بكل أريحية واعتيادية ويبلغهم عبر وسيلة اتصال مُحدده بكل التطورات أو التصرفات الغريبة الطارئة، خرج من المبنى بعدما أدى واجبه الوطنِي وما أملته عليه النفس الإنسانية، لكنه عاودته خزعبلات وعاد يُؤنِّب نفسه كثيرًا، يتهمها حينًا بالغباء وحيناً آخر يمدحها ويبجلُها لأن ذاك ما كان يجب حدوثه........

«لو كنت قبلت العرض الأول لكان الوضع اختلف الآن، صحيح السعد وعد يا عين»

سار يتغنى برائعة أم كلثوم ويتمايل يمينًا ويسارًا حتى ظن أنه قد حقق إنجازًا ضخمًا ولم لا فقد أثبت وطنيته ورجولته وحبه لمصر، ثم عاد إلى منزله يطرق بابه البائس كحالهِ، ودلف إلى شرفته المقابلة لشرفة جارته الحسناء ذات العينين الواسعتين، تلك الأرملة اللعوب التي حاول أن يداعبها كثيرًا لولا ضيق الحال فالعين بصيرة واليد قصيرة وهى من رواد الفنادق الفخمة والحانات الليلية حيث تلتقط زبائنها من هناك .

وبالطبع فقد عقله أمام تلك الجميلة بملابسها الرقيقة التي بدا طيفها واضحًا من وراء ستار شرفتها فقرر في ذاته أن يمتلكها للأبد بعد تنفيذ عمليته الأولى إلا أنه استفاق على طرقات جديّة على باب منزله، فتح الباب ليُفاجأ برجل طويل القامة ضخم البنية يحمل رسالة شفويّة...

- السيد حازم سلطان؟؟

- نعم أهلًا ومرحبًا .....

- أنا رسولك من الجهاز وأبلغك أنك مطلوب لمقابلة السيد المدير في تمام التاسعة صباحًا بعد غد ويمكنك إحضار حقيبة سفرك معك وجوازك أيضًا.

انقضى اليوم سريعًا وحلّ موعد لقاء جديد أبلغه فيه مدير الجهاز بقرار تجنيده وأن عليه السفر فورًا ليلحق بالكينج في فرانكفورت، لم تسعه الفرحة، فقام من مقعده وأدى التحية العسكرية كما ينبغي ثم غادر لإتمام أموره.

على الجانب الأخر علم الكينج بواسطة أحد رجاله أن حازم سافر إلى ألمانيا رغم تأكده أن إمكانياته لم تكن لتسمح بذلك إلا لو قبل العرض الأول الذي حكى له عنه عبر الهاتف، فمن أين أتى بتلك الأموال؟!!

لكنه لم يشك لحظة أن جهاز المخابرات المصرية وراء كل ذلك، فأعطى أوامره لرجاله بالبحث عنه وإحضاره حياً؛ فقد علم عنهم الكثير من النشاطات المشبوهة كما وعى لأسماء كبار رجال الأعمال والسياسيين الذين هم على علاقة بالشبكة وقد يكون قام بتسجيل اللقاء بهاتفة دون أن يدري أحد به.

وأثناء ملازمته لغرفة الفندق سمع شجارًا صاخبًا بين رجل وامرأة ضجيجهما حرماه النوم فاضطرّ للخروج من غرفته آسفًا لفض نزاعهما لم يدرِ بعدها إلا عندما وجد نفسه يجلس على إحدى طاولات مطعم الفندق، كيف؟ ومتى؟ لا يدرى!!!

انتبه للكرسي المقابل أمامه ليجد نفسه ضيفًا للكينج الذي بادره بدوره بالتحية وعاتبه على مغادرته مصر دون إخباره، فإن أخفق العمل والصفقات فصداقتهما باقية لم يمسّها شيء، انتهى سريعًا من العتاب بعد أن اجتاز الاختبار ولم يسمح للشك أن يتغلغل بداخل صاحبه ولو للحظة حيث أخبره أن سفره ذاك جزءًا من عمله لدى الشركة التي عمل بها لاسيّما وأن لها فرعاً في تلك البلدة، اقتنع الرجل ممتعضًا قائلًا:

- لكني أصر على وجودك معي ولابد أن يكون بيننا عمل ومصالح لقد اطمأننت لك كما أننا على وتيرة واحدة لا تحب مصر ولا المصريين وكذلك أنا وهذا في حد ذاته يُزكيك ويرفع شأنك عندنا.

وبعد تلك المناورة جلسا كصاحبين، كل منهما يحكي قصته عن النساء والخمور والمخدرات والصفقات التي لا تتم بسبب بعض المحتالين، صارحه الرجل بأن عليهما أن يتفقا على العمل معاً ووافقه تلك المرة تحت ضغط شديد، فأخذ يعرض له أوراقًا وخرائطًا مكتوبة باللغة العربية تخصُّ أماكنً حساسة بالقاهرة والإسكندرية وأهمها مناطق بكوبري القبة والقصر الرئاسي بالاتحادية بمصر الجديدة، لم يفزع الرجل من تلك المسألة فقد علم أن الرجل جاسوسًا يعمل لصالح جماعات إرهابية وشبكات جاسوسية عالمية منذ أول لقاء جمعهما.

ظلّ محتفظًا بصمته حتى أبلغه بالمخطط كاملًا ودوره بالتحديد في تجنيد الشباب عبر كل الوسائل المتاحة، سفر، هجرة، عمل، سياحة، زواج من أجنبيات، وغيره .

فهم دوره تمامًا وأخذ منه المبلغ المتفق عليه ثم غادر المكان مسرعًا، عانى كثيرًا لكي يهرب من المراقبة التي نصبها له الكينج فأخيرًا هو أصبح أحد رجاله ولا بد من رصد كافّة تحركاته، بعد أن نجح في الإفلات منهم استوقفه أحد رجال الجهاز بعد أن أقرّ بكلمة السر المتفق عليها، زوده بكل المعلومات التي تحصَّل عليها مؤخرًا، والتي كانت مُسجّلة بواسطة ساعة يد فائقة الدقة.

مر أسبوع على هذا اللقاء حيث غادر ألمانيا عقبه واتجه إلى اسطنبول وعاد من هناك إلى القاهرة، وفور وصوله إلى أرض الوطن قام بتسليم عهدته للضابط المتابع ثم ذهب في إجازة للإسكندرية ليخطط للمستقبل والحلم

الذي بات تحققيه وشيكًا وفى أثناء دخوله للمقهى الملحق بالفندق لاحظ جلبة من بعض الرواد أثارها خبرًا بقناة النيل الإخبارية عن القبض على شبكة إرهابية جاسوسية عالمية ضمّت عددًا من زعمائهم كما تمَّ التعرف على الحكومات التي تدعمها وسوف تتخذ وزارة الخارجية الإجراءات الدبلوماسية حيال ذلك، كان هذا نص البيان، فرح أخيرًا بهذا النجاح مردداً رائعة أم كلثوم السعد وعد يا عين.

وعند اقتراب موعد الاحتفالات بنصر أكتوبر جاءه استدعاء من الجهاز بالموعد المحدد للقاء وكانت المفاجأة أن يقوم الرئيس بتكريمه لشجاعته ومنحه قلادة النيل تقديرًا لمجهوداته في حماية أمن مصر ومواطنيها.

تمت بحمد الله.